الولاء والبراء
الآيديولوجيا الجديدة للإسلام السياسي

سعود بن صالح السرحان *

المتابع لفكر الجماعات الاسلامية الراديكالية يرى انه حصل لها تغيير في ترتيب اولوياتها واصولها، فبعد ان كان الغالب على فكر هذه الجماعات مبدأ «الحاكمية» الذي رسخه المودودي وسيد قطب واتباعهما، نلحظ انها جعلت الاولوية في منهجها لفكرة «الولاء والبراء» مدشنة بذلك مرحلة جديدة من مراحل الحركات الاسلامية الراديكالية. استطاعت هذه الفكرة المركزية الجديدة ان تعطي زخما للحركات الاسلامية، وتنفخ الروح فيها، وتدعوها للتضامن والتحالف وترك التقاتل وذلك باسم «الولاء» وان تتوجه جهودها لمحاربة امريكا والحكومات العربية والاسلامية «الموالية» لها وذلك تحت ستار «البراء».

ولحاجة هذه الايديولوجيا الحركية الجديدة الى منظرين فقد استعانت بأطروحات التكفيريين واشباههم من امثال ابي محمد المقدسي صاحب كتاب «ملة ابراهيم» ويريد به الولاء والبراء، وجهيمان العتيبي صاحب كتاب «رفع الالتباس عن ملة من جعله الله اماما للناس» وهو في الولاء والبراء ايضا، وكتب ناصر الفهد من جنس «التبيان في كفر من اعان الامريكان»، وكذا كتابات ابي بصير الطرطوسي، وغيرها، ولو نظرنا الى القاعدة فإن آخر كتاب رسمي لهم هو كتاب الظواهري «الولاء والبراء عقيدة منقولة وواقع مفقود».

وعند دراسة مفهوم هذه الجماعات للولاء والبراء يمكن تلخيصه في التالي: ان الولاء والبراء من اهم اصول الدين، وانه هو ملة ابراهيم التي لا يرغب عنها الا من سفه نفسه، وان من موالاة غير المسلمين ما هو كفر يخرج عن الاسلام، ومنها ما هو كبيرة من كبائر الذنوب، ومن صور موالاة غير المسلمين عندهم: محبتهم واكرامهم وتهنئتهم في مناسباتهم السعيدة وتعزيتهم في مناسباتهم الحزينة والعمل في خدمتهم والاستعانة بهم والاشادة بما وصلوا اليه من تقدم ومدنية والتأريخ بتاريخهم. ويشترطون اظهار العداوة والبغضاء لغير المسلمين.

وسأناقشهم في اهم افكارهم وأوضح خروجهم عن الفقه الصحيح للاسلام:

أمرنا الله، عز وجل، بموالاة المؤمنين لأجل ايمانهم ونهانا عن موالاة الكافرين لكفرهم او العاصين لمعصيتهم، فهذه هي الموالاة المحرمة باجماع العلماء. وذكر العلماء ان «المخالطة والمنافعة وبذل المعروف وكظم الغيظ وحسن الخلق واكرام الضيف ونحو ذلك فيستحب بذله لجميع الخلق، الا ما كان يقتضي مفسدة كالذلة فلا يبذل للعدو في حال الحرب».

والمسائل المتعلقة بالولاء والبراء يبحثها العلماء في كتب الفقه والآداب وأول من بالغ في مسألة الولاء والبراء هم الخوارج والشيعة، فذكروها في مباحث العقيدة، فقد ذهب البيهسية من الخوارج، وهم من اشدهم غلوا، الى ان الرجل يكون مسلما اذا شهد ان لا اله الا الله، وان محمدا عبده ورسوله، وتولى اولياء الله، وتبرأ من اعدائه، واقر بما جاء من عند الله جملة». وتشكل مسألة «البراءة» مرتكزا مهما في فكر الخوارج، فهي سبب لكثير من التفرق الذي اصابهم، وذلك بسبب الخلاف بينهم في «البراءة» من بعض الاشخاص، وبعض المسائل، مما ادى الى تنازعهم وتمزقهم، كما ترى ذلك في كتب الفرق وغيرها.

وبالنسبة للشيعة فيبدو انه كلما زاد التشيع غلوا زاد الاهتمام بالولاء والبراء، فالشيعة الإمامية يذكرون مسألة الولاء والبراء في كتب العقيدة، لكنهم يجعلونها من فروع مسألة الإمامة، اما الاسماعيلية الباطنية فيجعلون الولاية هي الاصل الاول في العقيدة عندهم ويجعلونها اصلا لمسألة الإمامة. ويبدو انه لهذا السبب حذر أئمة السلف من اتخاذ الولاء والبراء شعارا، فقد قال الامام احمد: «والولاية بدعة والبراءة بدعة وهم الذين يقولون: نتولى فلانا، ونتبرأ من فلان وهذا القول بدعة، فاحذروه».

ويروى عن جماعة من السلف من الصحابة والتابعين منهم: ابو سعيد الخدري والحسن البصري وابراهيم النخعي والضحاك وغيرهم انهم قالوا: الشهادة بدعة والبراءة بدعة. ونقل ابن أبي العز، ان الرافضة (ويعني الشيعة) يقولون: لا ولاء الا ببراء.

المبالغة في أهمية الولاء والبراء: يزعم اتباع هذه الجماعات ان الولاء والبراء ركن التوحيد وأصله، وانه اصل دعوة الانبياء والمرسلين: وهذا زعم كاذب، فركن التوحيد وأصله هو شهادة ان لا اله الا الله، وان محمدا رسول الله، وليس ما زعم هؤلاء انه الولاء والبراء. فأصل دعوة الانبياء والمرسلين هو الدعوة الى توحيد الله، لا الى الولاء والبراء، قال تعالى: «ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت».

ومعنى «واجتنبوا الطاغوت»: اجتنبوا عبادة الأوثان. وليس في الآية، ولا في غيرها من كتاب الله وسنة رسوله، ذكر ان الولاء والبراء هو أصل الدين او اصل بعثة الرسل، وأصول الايمان ستة: وهي الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر وليس منها الولاء والبراء.

والأدلة على بطلان قول المبالغين في مسألة الولاء والبراء كثيرة جدا، وسأذكر هنا دليلا واحدا فيه البيان التام باذن الله: وهو ما رواه البخاري (٢٦٩١) ومسلم (١٧٩٩) من حديث انس بن مالك قال: قيل للنبي، صلى الله عليه وسلم: لو اتيت عبد الله بن ابي. قال: فانطلق اليه وركب حمارا، وانطلق المسلمون يمشون معه، وهي ارض سبخة، فلما اتاه النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: اليك عني فوالله لقد آذاني نتن حمارك. قال: فقال رجل من الانصار: والله لحمار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أطيب ريحا منك، قال: فغضب لعبد الله رجل من قومه، فشتما، قال: فغضب لكل واحد منهما اصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد وبالايدي وبالنعال، قال: فبلغنا انها نزلت فيهم «وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما». ففي هذا الحديث فوائد كثيرة، فمنها: عيادة النبي، صلى الله عليه وسلم، لرأس النفاق، ومنها: لين النبي، صلى الله عليه وسلم، مع ابن ابي وعدم غلظته عليه، مع شدة عداوته له وسوء أدبه معه، ومنها: ان من اصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من لم يرض بشتم المنافق مع سوء أدبه مع النبي، بل دافع بعضهم عنه، حتى وصل الأمر الى الضرب والقتال. ومع ذلك لم يكفره النبي، صلى الله عليه وسلم، بحجة موالاته للمشركين على المؤمنين، ولا كفره الله، عز وجل، بل انزل فيهم قوله: «وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» فسماهم مؤمنين، ولو كان زعم المبالغين في الولاء والبراء صحيحا، لكفرهم الله، عز وجل، ونبيه، صلى الله عليه وسلم.

ومما يدل على ان الولاء والبراء ليس بالاهمية التي يصورها هؤلاء، من انه لا يصح الاسلام بدونه: عدم تبيين القرآن والنبي، صلى الله عليه وسلم، لأهميته، فقد كتب النبي، صلى الله عليه وسلم، للملوك، وأرسل اصحابه للبلدان والقبائل، ولم يأمرهم بالولاء والبراء، بل امرهم بتوحيد الله وترك عبادة الاوثان ولو كان لا يصح الاسلام بدون الولاء والبراء لما صح ان يؤخر النبي، صلى الله عليه وسلم، بيانه، اذ لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة.

ولم يصرح رسول الله بالعداوة والبغضاء لأبي طالب لما كانوا في مكة، ولم يصرح اصحابه بالعداوة والبغضاء لقومهم. وقال تعالى عن قوم شعيب انهم قالوا له: «قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز»، أفتظن رهط شعيب يدافعون عنه وهو مصرح لهم بالعداوة والبغضاء؟ وقد اجمع المسلمون على ان من اراد الدخول في الاسلام، فإنه يكتفى منه بالنطق بالشهادتين فقط، وانه يدخل في الاسلام على ذلك، ولم يرد في كتاب ولا سنة ولا فعل صحابي، ان من شهد الشهادتين لا يقبل ذلك منه حتى يصرح بعداوة الكفار وبغضهم.

الولاء والبراء وملة ابراهيم: زعم اتباع هذه الجماعات، وغيرهم ان الموالاة والمعاداة واظهار العداء والبغض للكفار هو ملة ابراهيم، التي لا يرغب عنها الا من سفه نفسه. وهذا القول غير صحيح، فملة ابراهيم هي توحيد الله عز وجل وهي الاسلام وبهذا وردت نصوص الكتاب والسنة. فمنها قوله تعالى: «ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين»، و«قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين»، و«قل إنني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين».

ففي هذه الآيات جميعا يظهر جليا ان ملة ابراهيم هي الاسلام: توحيد الله، عز وجل، وترك الشرك. وليس في أي آية منها ذكر الموالاة والمعاداة، فضلا عن اظهار العداوة والبغضاء، بل استفاد بعض العلماء من الآية الاخيرة (اللين والرفق) عند دعوة غير المسلمين، قال الرازي، في معنى قوله تعالى: «ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم»: «يحتمل ان يكون الامر بمتابعته في كيفية الدعوة الى التوحيد، وهو ان يدعو اليه بطريق الرفق والسهولة وايراد الدلائل مرة بعد اخرى بأنواع كثيرة، على ما هو الطريقة المألوفة في القرآن». فإن قيل: قال الله تعالى: «قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده الا قول ابراهيم لأبيه لاستغفرن لك وما املك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير».

فالجواب: اولا: لم يذكر في الآية ان الولاء والبراء واظهار العداوة هو ملة ابراهيم، بل غاية ما فيها انها اسوة حسنة، وشتان بين الامرين. ثانيا: ان ابراهيم لم يصرح بالعداوة والبغضاء الا بعد ان حاربه قومه وآذوه وألقوه في النار، وضيقوا على دعوته، عندئذ ظهرت العداوة والبغضاء بينهم وهذا امر صحيح، لا نختلف عليه، وهو ان الكافر المحارب للاسلام المؤذي للمسلمين، الظالم لهم، الباغي عليهم: يجب اظهار العداوة له، والارهابيون لا يفرقون بين الظالم للمسلمين، المحارب للاسلام وبين غيره من المسالمين والمعاهدين. ثالثا: يؤيد هذا المعنى للآية، وان فعل ابراهيم اسوة حسنة لمن كان في مثل حاله: سبب نزول الآيات، وهو قصة حاطب بن ابي بلتعة، المشهورة: وفيه: «فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه: من حاطب بن ابي بلتعة الى اناس من المشركين من اهل مكة يخبرهم ببعض امر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا حاطب ما هذا؟»، قال: يا رسول الله لا تعجل عليَّ، اني كنت امرأً ملصقا في قريش ولم أكن من انفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها اهليهم واموالهم فأحببت اذ فاتني ذلك من النسب فيهم ان اتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي وما فعلت كفرا ولا ارتدادا ولا رضا بالكفر بعد الاسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد صدقكم» قال عمر: يا رسول الله دعني اضرب عنق هذا المنافق، قال: «إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» رواه البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (٢٤٩٤).

وفي بعض الفاظه ان حاطبا قال: «لا تعجل والله ما كفرت ولا ازددت للاسلام الا حبا.. فصدقه النبي، صلى الله عليه وسلم». وفي بعض الالفاظ ان النبي نهاهم ان يقولوا له الا خيرا، ففي هذا الحديث رد على المبالغين في الولاء والبراء، من وجوه: الوجه الأول: بيان صفة الكافر الذي امرنا ان نبدي له العداوة والبغضاء وهو المذكور في هذه الآيات، قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم ان تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون اليهم بالمودة وانا اعلم بما اخفيتم وما اعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل. ان يثقفوكم يكونوا لكم اعداء ويبسطوا اليكم ايديهم والسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون» (الممتحنة: ١ ـ ٢). حتى قوله: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين. انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون» (الممتحنة:٩). فالذين امرنا ان نظهر العداوة لهم، هم من اجتمعت فيهم هذه الصفات: عداوة الله، وعداوة المؤمنين والكفر بالدين والتضييق على المسلمين وطردهم والذين لا يتورعون عن قتل المؤمنين وايذائهم بالقول والفعل، اما من لم يجمع هذه الصفات، فقد اذن الله، عز وجل، لنا ببره والإقساط اليه وهؤلاء المبالغون يجعلون وجوب اظهار العداوة والبغضاء عاما لغير المسلمين جميعا.

الوجه الثاني: ان النبي لم يكفر حاطبا، فقد صدق النبي حاطبا على قوله: انه مؤمن، بل خاطبه الله، عز وجل، في أول الآيات بقوله: «يا أيها الذين آمنوا».

الوجه الثالث: ان ذنب حاطب انما كان في كتمه ارسال الرسالة لقريش، وهذه خيانة لأمير الجيش، اما مجرد ارساله لقريش فليس موالاة وهذا قول ابن الوزير (أحد علماء القرن التاسع الهجري).

صور للولاء والبراء: ذكر المبالغون في الولاء والبراء صورا غير صحيحة فمن ذلك اشتراطهم اظهار العداوة والبغضاء لكل كافر، من غير تفصيل واشتراطهم الهجرة من البلاد غير الاسلامية.. الخ. وسأرد عليهم ردا مختصرا: فقد سبق بيان من تظهر له العداوة، اما من عداه فتجوز محبته لخصلة خير فيه او لمحبة دنيوية.

ومن الادلة على ذلك، قوله تعالى: «والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم»، حيث اباح الله عز وجل، نكاح الكتابية، وهي غير مسلمة، وقال تعالى عن الزوجة: «ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة»، فهناك مودة بين الزوج وزوجته، حتى لو كانت غير مسلمة، ولم يأمر الله بعدم محبتها او يأمر ببغضها او باظهار العداوة لها.

وقال ابن الوزير: «اجاز المشددون في الولاء والبراء ان يحب العاصي لخصلة خير فيه، ولو كافرا، كأبي طالب». فقد نقل هذا عن المشددين في الولاء والبراء، فكيف يكون قول المعتدلين او المتساهلين؟ ويوسف، عليه السلام، كان وزيرا على خزائن الارض، عند الملك الكافر، وأبوه واخوته هاجروا اليه، فهؤلاء ١٣ نبيا لم يصرحوا بمعاداة الكفار أو البراءة منهم. وهذا جعفر بن ابي طالب، رضي الله عنه، ومن معه من المهاجرين، لم يصرحوا بالعداوة والبغضاء للنجاشي وأهل الحبشة، بل آلانوا لهم القول، وعاملوهم بالحسنى، وجلسوا عندهم على تلك الحال ولم يهاجروا الى المدينة، مع ان الاسلام كان قويا، الا سنة ٧ للهجرة. وايضا، فالنجاشي لما اسلم لم يهاجر، ولم يصرح بعداوة اهل بلده، بل اخفى دينه، وهو الملك، ومع ذلك لما مات صلى عليه النبي، صلى الله عليه وسلم، صلاة الغائب. فهذه الأدلة وغيرها، تبين انه لا يشترط في صحة الايمان والاسلام الهجرة من بلاد الكفار، ولا اظهار العداوة لهم، وبغضهم. وفي هذه الاوقات نحن بأمس الحاجة الى ترسيخ مفاهيم المحبة والتسامح في العالم بدلا من مفاهيم البغض والكراهية والعنف.

الولاء والبراء في القرآن

نهرو عبدالصبور طنطاوي *
nehro_basem@hotmail.com

الأساس في العلاقات بين بني البشر في القرآن تقوم على التنوع المؤدي حتما إلى التعارف فيما بينهم.

قال تعالى:

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

والتفاضل الوحيد بين بني البشر يكون في فعل التقوى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) والتقوى هي من الوقاية والوقاية أصلها في اللسان العربي هي: دفع شيء عن شيء بغيره. بمعنى دفع غضب الله وعذابه عن الناس بفعلهم للطاعات وتركهم المعاصي.

إذن من هذا النص القرآني العظيم نستنتج أن أصل العلاقة بين الناس هو أنهم من جنس واحد وهو الجنس البشري أو جنس الناس الذي يتنوعون في ذكر وأنثى وشعوبا وقبائل ، وجعل الله هذا التجانس مع ذلك التنوع لغاية أن يتعارف الناس مع بعضهم البعض أو على بعضهم البعض ، إذ لو كان الناس نوعا واحدا وشعبا واحدا وقبيلة واحدة لما احتاج الناس إلى التعارف فيما بينهم ، أما التنوع بين بني الجنس الواحد هو الباعث على تعارف الناس فيما بينهم ، وتعرفهم على بعضهم البعض ، وأصل التعريف والتعارف هو: تحديد الشيء بذكر خواصه المميزة.

إذن أصل العلاقات بين الناس يقوم على التعارف والتكامل والتعاون فيما بينهم وهذه هي القاعدة ، أما الاستثناء فيكون في حالات الحروب والاعتداء من قبل البعض على البعض الآخر ، ومن هنا يأتي التشريع القرآني للولاء والبراء.

البعض من الناس يعتقد جهلا أن نهي القرآن عن موالاة البعض من غير المسلمين ، هو تحريض من القرآن للمسلمين على كره غير المسلمين وبغضهم بسبب عدم اعتناقهم للإسلام أو بسبب بقائهم على دياناتهم، وهذا فهم قاصر خاطئ لنصوص القرآن.

إن الولاء والبراء بين المسلمين وغير المسلمين من المواضيع التي أخطأ في فهمها معظم الناس المسلمين وغير المسلمين ،وكل أدلى بدلوه في هذا الموضوع .

فالتيارات الإسلامية معظمها يعتبرون أن أي شخص على وجه الأرض لا ينتسب للإسلام يجب على المسلمين معاداته وبغضه والتبرؤ منه ويحرم مخالطته ومصاحبته ومشاركته ويحرم حبه والتودد إليه ,أما البعض من غير المسلمين يتلقفون هذا الفهم السقيم الذي يفهمه المغالون والمتشددون المسلمون بغرض تشويه صورة الإسلام ,ثم يقولون انظروا إلى الإسلام إنه دين يدعو إلى العداء والكراهية والحقد بين الناس ,وإنه دين لا يعرف التسامح ولا الرحمة.

هذا هو اعتقاد كل من المسلمين المتشددين وغير المسلمين ،فكل منهما ينظر إلى الموضوع حسب رؤيته وحسب ما يؤيد نظريته وتوجهه، وكل من الفريقين يعتمد على بعض القصص وبعض الأحاديث الظنية المتناقضة والمتضاربة مع المنهج القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وكما يعلم الجميع أن كتب التراث الإسلامي وما يسمى بالسنة والسيرة والفقه معظمها مليئة بالتناقضات في كل الأحكام والتشريعات والوقائع بحيث لا يكاد يخلو حكم أو تشريع أو حادثة واحدة إلا وفيها خلاف واختلاف وتناقض تعج به كتب التراث ، وهذا واضح جلي لكل من له أدنى اطلاع على كتب التراث الإسلامي والذين يعتمدون كتب التراث كمصادر ومراجع لتوجهاتهم الفكرية والشخصية سواء منهم التيارات الإسلامية أو غير الإسلامية وكما هو معلوم وليس بخاف على أحد أنهم يصطادون من كتب التراث ما يحلوا لهم ولمناهجهم وتوجهاتهم الشخصية ، ولحاجات في نفوسهم.

ولكن ماذا عن رؤية القرآن لهذه المسألة؟ هذا ما سوف نجيب عنه في هذا المقال.

سوف نعرض نظرة القرآن إلى الولاء والبراء أو الموالاة والمعاداة بين المسلمين وغير المسلمين على النحو التالي :

بداية نقول إنه من المحال أن يأمر دين من الأديان اتباعه بأن يكرهوا أهل الأرض جميعا دون سبب يذكر ,أو أن يعادوا أهل الأرض جميعا دون سبب يذكر ,لا لشيء سوى انهم غير مسلمين أو غير تابعين لدين الإسلام , فلو حدث هذا فهو ضرب من الجنون الذي لا يستسيغه عقل ,ومحال أن يكون هذا دين جاء من عند الله ومحال أن يكون هذا مقصد القرآن وهذه نظرته . إذن ما هي نظرة القرآن لهذه المسالة ؟

قبل الحديث عن الولاء والبراء في القرآن نقوم ببيان معنى كل من الولاء والبراء كما جاء في اللسان العربي على النحو التالي:

الولاء في أصل اللسان العربي هو: القرب.

أما البراء فهو: التباعد من الشيء ومفاصلته.

ومن هذا المعنى للولاء نرى أن الله قد نهى عن القرب من بعض الكفار والقرب منهم جاء في كل آيات القرآن بمعنى النصرة أي مناصرة الكفار ضد المسلمين وذلك في حالة الحروب والاعتداء فقط من قبل الكفار على المسلمين ,ولا يمكن أن يكون المقصود بالولاء وشائج القرابة أو المحبة أو الصداقة أو المعاملة بالحسنى كما يعتقد البعض ، لأن الولاء بهذين المعنيين يستحيل النهي عنهما , لأن القرابة موجودة أصلا ولا يعقل النهي عنها والمحبة أيضا لا يمكن النهي عنها، أما ما يمكن ويعقل النهي عنه هو ولاء النصرة بمعنى المساعدة والمعاونة وهذا هو ما قصده الله سبحانه بالنهي عنه ,ومن المعلوم عند الناس أن النصرة لا تكون إلا في الحروب إذ لا يعقل أن يكون هناك نصرة لأحد على أحد إلا بوجود عداوة وحرب وهذا ما قصده الله سبحانه عن تولي الذين كفروا أي عند نشوب الحرب والقتال بين المسلمين وغير المسلمين ,فلا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن ينصر أو يناصر الكفار المعتدين على إخوانه المسلمين ,أما المشركين وغير المسلمين من أي ملة كانوا لم ينه الله عن معاملتهم وبرهم والعدل في معاملتهم والإحسان إليهم ما لم يناصبوا المسلمون العداء في دينهم أو يغتصبوا حقوقهم.

وهنا مسألة أيضا يجب توضيحها وهي أن أي حرب بين المسلمين وغير المسلمين يجب أن ينظر إلى سبب هذه الحرب فإن كان سببها اضطهاد المسلمين وسلب حقوقهم بسبب دينهم أي اعتناقهم للإسلام فعندها لا يحل لمسلم يؤمن بالله ويؤمن بالإسلام أن يناصر غير المسلمين ويتولاهم في حربهم ضد المسلمين ,وقد تنشب حرب بين المسلمين وغير المسلمين بسبب قطعة أرض أو أي سبب آخر غير الدين فهنا ينظر إلى الحق مع من ؟ مع المسلمين أو مع غير المسلمين ,فإن كان الحق للمسلمين فلا ينبغي مناصرة غير المسلمين وإن كان الحق مع غير المسلمين فلا ينبغي أن يناصر المسلمين في ظلمهم لغيرهم ,حتى و لو كانوا مشركين وغير مسلمين ما دام انهم معتدى عليهم من قبل المسلمين ,وهنا ينبغي أن يناصر صاحب الحق ويقف بجانبه حتى ولو كان غير مسلم ضد مسلم لأن الله امرنا بالعدل بين الناس مؤمنهم وكافرهم ، قال تعالى: (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان).

فالنهي عن ولاية ومناصرة المشركين أو الكافرين الواردة في القرآن هي للذين يقاتلون المسلمين في دينهم ، أو قتال من يغتصبون حقوق المسلمين ويخرجونهم من ديارهم وأموالهم وأبنائهم بغير حق ,وهذا ما قرره القرآن في كل نصوص القرآن التي تنهى عن موالاة غير المسلمين.

قال تعالى :

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين × إنما ينهاكم عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)

فلم ينهَ الله عن ولاية أحد على وجه الأرض إلا الذين يقاتلون المسلمين في دينهم أو يغتصبون حقوقهم أومن يناصرهم حتى ولو كان من المسلمين ,فمن ناصر أعداء المسلمين وساعدهم وعاونهم ضد المسلمين يجب التبرؤ منه وعدم ولايته إلا إذا تاب وعدل عن فعله هذا ، هذا شريطة أن يكون الحق والعدل مع المسلمين.

ولم ترد آية في القرآن تنهي عن ولاية المشركين أو أهل الكتاب اليهود والنصارى لأجل دينهم أو عدم اعتناقهم للإسلام ، إلا الذين حاربوا المسلمين في دينهم أو اغتصبوا حقوقهم أو أعانوا أعداء المسلمين عليهم وناصروهم وساعدوهم ضد المسلمين ,وكل آية وردت في النهي عن موالاة المشركين أو اليهود أو النصارى ومن ناصرهم ومن تولاهم لا بد وأن يذكر سياق القرآن أنهم ظالمون للمسلمين أو معتدون على حقوق المسلمين أو مناصرون لأعداء المسلمين ,ولم يرد نص قط في القرآن ينهى عن موالاة المشركين أو اليهود والنصارى بسبب عدم اعتناقهم للإسلام أو بسبب كفرهم وشركهم فهذا لم يرد قط في كتاب الله ,ومن يأت بنص مقتطع من سياق الآيات فليراجع القارىء الآيات قبلها والآيات بعدها وسيعرف أن كل نهي عن موالاة المشركين واليهود والنصارى مقصود منه المحاربين للمسلمين فقط ,وليس كل المشركين وليس كل الكافرين وليس كل اليهود والنصارى بل المعادين والمحاربين لهم والمعتدين عليهم بسبب دينهم , وسوف أورد كل النصوص التي وردت في القرآن في النهي عن موالاة المشركين واليهود والنصارى المعاديين للمسلمين والمعتديين عليهم بسبب اعتناقهم للإسلام ,والمعاونين للمشركين ضد المسلمين .

قال تعالى : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء)

هذا نهي من الله للمؤمنين عن اتخاذ الكافرين أنصارا من غير المؤمنين والنصرة لا تكون إلا في الحرب أو في إبطال حق للمؤمنين ,أما في أمور الحياة اليومية من معاملات وبر وعدل وإحسان ومعاونة وغيرها فلا يقال عنها ولاية أو نصرة لأن النصرة لا تكون إلا في الحرب أو في إبطال حق لصاحب الحق ,هذا هو معنى النصرة وتكون الولاية للأعداء ونصرتهم إما بمساعدتهم ضد المسلمين أو بتقديم ما من شأنه إلحاق الأذى والظلم بالمسلمين أو بالقتال معهم أو بالتجسس للأعداء ضد المسلمين كل هذا ولاية ونصرة وهذا هو معنى قوله تعالى: (من دون المؤمنين) أي من غير المؤمنين ,ولا يقصد مطلقا من هذه الآية القرابة أو المحبة أو الصداقة والمعاملة بالتي هي أحسن وهذا محال أن ينهى الله عنه لاستحالة تحقيقه إذ كيف أنهي شخصا عن قرابته حتى لو كانوا أعداء له ؟ أو كيف أنهاه عن محبة شخص ما حتى ولو كان عدو له أو مواليا لأعدائه ؟ وذلك لأن القرابة والمحبة حاصلة قبل العداوة وهذا ما لا سبيل إلى منعه مطلقا ,أما المقصود عدم مناصرة الكفار المعتدين على المسلمين وعدم تقديم أي عون لهم ولو كان هؤلاء القوم أحبة وذوي قربى.

وقال تعالى:

(ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا)

وهؤلاء جماعة من المسلمين بقوا في مكة ولم يهاجروا مع الرسول وتمنوا أن يبقى المسلمين في صفوف الأعداء مثلهم لقوله تعالى :(ودوا لو تكفرون كما كفروا) فهؤلاء نهى الله عن نصرتهم ما داموا بين صفوف الأعداء , لكن إن هاجروا وتركوا أهل مكة المعتدين الغاصبين فعندها ينتهي الأمر ,أما إن بقوا ودارت رحى الحرب فيجب قتلهم أينما وجدوا ولا يحل مناصرتهم وهم على هذه الحال .

قال تعالى:

(بشر المنافقين أن لهم عذابا أليما × الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا)

وقال تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا)

وقال تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين × فتري الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أوامر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين)

وقال تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين × وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)

وقال تعالى:

(ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون)

وقال تعالى:

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)

وقال تعالى:

(وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض)

وقال تعالى:

(إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون)

كل هذه النصوص تنهى عن موالاة ونصرة غير المسلمين ضد المسلمين سواء كانوا مشركين أو من أهل الكتاب اليهود والنصارى إذا كانوا يحاربون المسلمين ويضطهدونهم من أجل دينهم أو إخراجهم من ديارهم واستولوا على أموالهم ,فلا يحق مناصرتهم ولا مناصرة من يناصرهم ضد المسلمين ,والمناصرة والولاية تعني في مصطلحاتنا الحديثة التجسس لصالح العدو أو تقديم أي مساعدات له ضد المسلمين .

● القرابة والمحبة والولاء والبراء:

لا يمكن أن ينهى الله عن القرابة فهذا محال لأن جميع المسلمين الذين هاجروا من مكة كان لهم أقرباء في مكة وبقوا مع المشركين ولم يأمر الله أحدا بقطع قرابته أو بقطع رحمه وإنما نهى عن مناصرة وولاية الأقرباء المشركين ضد المسلمين .

أما المحبة فلا مانع من أن يحب المسلم غير المسلم ما دام لم يقاتله في دينه ولم يخرجه من داره ولم يعتد عليه ولم يعن عليه أعداءه , والدليل على ذلك قوله تعالى: (أن تبروهم وتقسطوا إليهم) والبر هو المودة والمحبة وعمل الخير ,وأباح الله أن نتزوج المحصنات من نساء اليهود والنصارى حتى ولو بقين على دينهن ولم يدخلن الإسلام ,وهذه الزوجة اليهودية أو النصرانية ألا يحبها زوجها المسلم ويتودد إليها ويأكل ويشرب ويقيم معها بصفة دائمة وهي لا تزال على يهوديتها أو نصرانيتها , إذ لا يعقل أن يتزوج رجل امرأة وهو لا يحبها ويودها وربما يعشقها . إذن لم يأمر القرآن ببغض أحد من غير المسلمين مهما كان دينه إلا إذا قاتل المسلم في دينه أو أعان أعداء المسلمين عليهم .

● كيف بدأت ولاية ومناصرة بعض المسلمين للمشركين والكفار:

لما هاجر الرسول والذين آمنوا معه هربا من اضطهاد أهل مكة إلى المدينة بعد محاولة اغتيال الرسول ,ترك المهاجرون بمكة أهليهم وذويهم وأقرباءهم وبني عمومتهم ,فلما أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بقتال أهل مكة لاسترداد حقوقهم وديارهم وأموالهم التي اغتصبها أهل مكة بعد إخراج الرسول وأتباعه منها ,حاول البعض من أتباع الرسول أن يجامل أهل مكة ويتودد إليهم حفاظا على أهليهم وذويهم الذين بقوا في مكة ومنهم من تجسس لصالح أهل مكة كما ذكر القرآن .

قال تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل × إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون × لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير)

فيبين لنا هذا النص القرآني أن السبب الرئيسي وراء موالاة ونصرة بعض المسلمين لأهل مكة الأعداء هو الحفاظ على الأولاد وذوي الرحم والقرابة الذين بمكة ولم يهاجروا ,وكان الخوف على الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة